

الفصل الثاني الدراسات السابقة عن تاريخ الفكر الاجتماعي

المقدمة

١ - الدراسات العراقية.

٢ - الدراسات العربية.

٣ - الدراسات الأجنبية.

obeikandi.com

المقدمة:

تتجلى أهمية الدراسات السابقة فى توضيح أهم الموضوعات والحقول والتفصيلات التى لها علاقة بموضوع البحث، حيث إن البحث العلمى يبدأ من نقطة انتهاء الدراسات السابقة، ويحاول أن يضيف إليها معلومات جديدة تطور الدراسة وتوجهها بمسار يستطيع من خلاله الباحث توضيح المعلومات والحقائق التى يجمعها عن الموضوع، والمقصود بالمسار أهم المباحث والفصول والمحاوور التى تطرقت إليها الدراسات السابقة باعتبارها الدليل المادى العلمى الذى يعتمد عليه الباحث فى بحثه ويمكنه من الوصول إلى المستوى العلمى المطلوب.

والدراسات السابقة لها أهمية كبيرة يستطيع الباحث من خلالها اشتقاق الفرضيات والنظريات لغرض التأكد من صحتها أو عدم صحتها فى البحث المزمع القيام به^(١). ناهيك عن مساعدتها للباحث فى التعرف على أهم النتائج التى توصلت إليها من خلال الإطلاع على ما توصلت إليه هذه الدراسات من توصيات ومقترحات، كما أنها تمكنه من الحصول على المعلومات والحقائق التى تغذى البحث بالحقائق التى يحتاجها.

كذلك توضح طبيعة المناهج والنظريات الدراسية التى اعتمد عليها الباحثون السابقون عند إجرائهم لهذه الدراسات^(٢)، والتعرف على ماهية الإضافات التى جاءت بها الدراسات السابقة لكى يستفيدوا منها فى دراسته من خلال رفدها بالحقائق والمعلومات الجديدة مع التعرف على أهم المشكلات والتحديات التى واجهت الباحثين عند قيامهم بهذه الدراسات لكى يقوم الباحث بتفاديها حتى لا تكون عاملاً معوقاً فى إجراء الدراسة.

إن الدراسات السابقة تمكن الباحث من اشتقاق مجموعة فرضيات ونظريات وقوانين ترفد الدراسة الحالية بالأطر المعرفية والتفصيلات النظرية عن الموضوع المراد بحثه.

(1) Black, James and Dean Chamion Methods and Issues in Social Research, John Wiley, New York, 1976, p. 76.

(2) Ibid., p. 13.

بالإضافة إلى ما تقدم أعلاه فإن الدراسات السابقة تعد من الأمور المهمة لأي بحث، حيث تنير الطريق أمام الباحث وتمكّنه من الوصول ببحثه إلى المستوى المطلوب، ولهذا فإن أي باحث علمي لا بد له من الاعتماد على ركائز علمية يستند إليها سواء أكانت نظرية أم ميدانية تساعده في الوصول إلى الحقيقة التي يروم معرفتها واستقصاء آثارها.

إن فصل الدراسات السابقة يتضمن ثلاثة محاور أساسية وهي على النحو الآتي:

١ - المحور الأول - تضمن دراستين عراقيتين هما دراسة الدكتور إحسان محمد الحسن الموسومة «الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع»، والدراسة الثانية دراسة الدكتور رشيد عبد الله الجميلي الموسومة «الحياة الاجتماعية والدينية عند العرب في عصر ما قبل الإسلام».

٢ - المحور الثاني - تضمن دراستين عريبيتين الأولى دراسة الدكتور مصطفى الخشاب عن «الفارابي»، والدراسة الثانية دراسة الدكتور محمد عاطف غيث عن «أبو حامد الغزالي».

٣ - المحور الثالث - تضمن هذا المحور دراستين أجنبيتين هما دراسة الأستاذين هورد بيكر وهاري بارنز عن «أهمية ابن خلدون في دراسات علم الاجتماع والفكر الاجتماعي». والدراسة الثانية دراسة البرفيسور دُون مارتن ديل عن «النظرية الصراعية عند ابن خلدون».

والآن نقوم بشرح موجز لكل من هذه الدراسات التي لها علاقة بموضوع بحثنا هذا.

دراسة «الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع»

للأستاذ الدكتور/ إحسان محمد الحسن

تعد هذه الدراسة من أهم الدراسات السابقة لتعلقها بموضوع دراستنا بصورة مباشرة، وهي أول دراسة نظامية في مجال الفكر الاجتماعي العربي، وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة المورد التي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام في جمهورية العراق^(١).

تحدث الباحث في الدراسة عن اهتمامات العرب بقضايا المجتمع قبل الإسلام، حيث اهتموا اهتماماً كبيراً بالعلاقة بين البيئة والمناخ وطبيعة النظم الاجتماعية التي تحدد مسارات حياتهم الخاصة والعامة.

وتناولت الدراسة أيضاً تاريخ وحياة وأعمال المفكرين الاجتماعيين العرب أمثال الفارابي وابن بطوطة وابن خلدون، وأوضحت أهم الإضافات الفكرية التي قدمها هؤلاء، والتي من خلالها يمكن أن نستنبط البدايات التاريخية لعلم الاجتماع. وقد استطاع الباحث توضيح الاتجاهات الأساسية للفكر الاجتماعي وهي كما يأتي:

أ - تفسيرات أصل ونشوء المجتمع:

لقد علل المفكرون الاجتماعيون العرب حقيقة الاجتماع الإنساني واعتقدوا بأن الإنسان حيوان اجتماعي بالطبيعة نظراً لسيطرة الغريزة الاجتماعية عليه سيطرة كاملة، وأن الطبيعة الاجتماعية للإنسان تقوده إلى تكوين علاقات اجتماعية مع الغير وظهور أنماط مختلفة من التضامن كالتضامن الاقتصادي والسياسي والثقافي والروحي... إلخ^(٢).

ففي حالة التضامن السياسي الذي يستدعي دخول الأفراد في علاقات تعاونية تهدف إلى تمشية أمور المجتمع والسيطرة عليه وتحقيق أهدافه، فتظهر الدولة لتؤدي الوظائف المطلوبة التي يحتاجها الأفراد.

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، مجلة

المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث، ١٩٨٦، ص ٦٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٩.

ب - العلاقة بين الفرد والمجتمع:

يعتقد الرواد الاجتماعيون العرب بأن الفرد هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع، ولولا الفرد لما ظهر المجتمع ولما استطاع أن يتطور وينمو ويتقدم في معالم الحضارة والمدنية. والمجتمع يزود الفرد بالمهارات والقابليات ويعلمه العادات والتقاليد والقيم، يلقنه اللغة التي يتكلم بها والدين الذي يؤمن به. ويعتقد علماء الاجتماع العرب بأن الفرد لا يمكن أن يأتي قبل الجماعة، وأن الجماعة لا يمكن أن تأتي قبل الفرد، حيث إن الفرد مهم للجماعة والجماعة مهمة للفرد وأن هناك درجة عالية من التكامل بين الفرد والجماعة.

ج - المورفولوجية الاجتماعية:

لقد اهتم المفكرون الاجتماعيون بمورفولوجية المجتمعات التي تنطوي على أشياء كثيرة كالتوزيع المهني والجغرافي للسكان والتوزيع العمري والجنسى والعلاقة بين معالم البيئة الطبيعية ومعالم البيئة الاجتماعية.

وقد درس ابن خلدون الصفات البيولوجية والاجتماعية للسكان والعوامل المؤثرة في زيادته أو قلته وهجرته من مكان لآخر.

أما ابن بطوطة فقد درس الظواهر الطبيعية والمناخية والأرضية وأثرها في قيم وعادات وأديان المجتمعات التي زارها. واشتق قوانين اجتماعية تفسر العلاقة بين المعالم الطبيعية والحضارات الإنسانية التي شهدتها المعمورة^(١).

د - التشريح الاجتماعي (العمران البشري):

يركز ابن خلدون على موضوع التشريح الاجتماعي، أي الأجزاء والنظم الفرعية التي يتكون منها المجتمع، حيث يقارن بين الكائن الحيواني والكائن الاجتماعي من ناحية البناء والوظائف، فالمجتمع بنظره لا يختلف عن الكائن الحيواني الحى.

فكما يتكون الكائن الحيواني الحى من أجهزة عضوية بيولوجية فإن المجتمع الإنسانى يتكون أيضاً من نظم وبنى فرعية لها وظائف معينة ومتربطة بعضها ببعض،

(١) نفس المصدر السابق، ص ٧٠.

كالنظام السياسى والنظام الدينى والنظام العائلى والتربوى، ومجموعة هذه النظم التى لها أهداف محددة تسمى بال عمران البشرى .

هـ - السكون والديناميكية الاجتماعية:

يرى المفكرون الاجتماعيون العرب بأن المجتمع البشرى هو كائ ساكن ومتحرك فى آن واحد، حيث يؤكد ابن خلدون بأن المجتمع البشرى خلال نقطة زمنية محددة هو كائن ساكن، وسبب سكونه يرجع إلى تكامل المؤسسات أو النظم الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع . فالمجتمع يتحول كما يعتقد ابن خلدون من مجتمع بدوى ريفى إلى مجتمع حضرى مستقر، كما أنه يمر بثلاث أدوار أساسية تحقق سعادة الفرد وكمال المجتمع وازدهاره فى ميادين كافة، وقد أكد هؤلاء العلماء على أهمية ودور القائد فى المجتمع .

لذا ينبغى أن يتسم القائد بصفات إيجابية ونادرة تؤهله على القيادة واحتلال الموقع المؤثر فى الدولة والمجتمع، وتمكنه من أداء المهام والمسؤوليات المهمة التى تساعد على تقدم وازدهار المجتمع . وقد حدد الفارابى أهم الوظائف التى يمكن أن يتحملها القائد وهى وظيفة الرئاسة والسيطرة على شؤون الدولة وإدارتها بالشكل الصحيح الذى يحقق العدالة والمساواة لجميع الأفراد .

و - تصنيف المجتمعات الإنسانية:

لقد صنف ابن خلدون المجتمعات تبعًا لدرجة نضوجها التاريخى وتقدمها الحضارى، وأشار إلى المعيار الأساسى الذى اعتمد عليه فى عملية التصنيف .

حيث يعتقد بأن هناك نوعين من المجتمعات هما: المجتمع الريفى (البدوى)، والمجتمع الحضرى . وأوضح بأن المجتمعات تتحول من مجتمع لآخر وحدد صفات المجتمع البدوى بهبوط الكثافة السكانية وعدم التخصص وهبوط المستوى المعاشى والصحى، أما المجتمع الحضرى فيتميز بارتفاع الكثافة السكانية وتنوع عناصر السكان وسيادة نظام تقسيم، وارتفاع المستوى المعاشى والصحى وسيطرة الدولة على أنشطة المجتمع وضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات . وقام الفارابى بتصنيف المجتمعات إلى مجتمعات فاضلة تحقق السعادة والكمال للأفراد والجماعات، ومجتمعات

كانت نظام السياسي : النظام الديني والنظام العائلي والتربوي ومجموعة هذه النظم

انتي لها أهداف محددة تسمى بالعمران البشري

هـ- السكون والديناميكية الاجتماعية:

يري المفكرون الاجتماعيون العرب بأن المجتمع البشري هو كائن ساكن ومتحرك في آن واحد، حيث يؤكد ابن خلدون بأن المجتمع البشري خلال نقطة زمنية محددة هو كائن ساكن، وسبب سكونه يرجع إلى تكامل المؤسسات أو النظم الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع، فالمجتمع يتحول كما أنه يمر بثلاث أدوار أساسية تحقق سعادة الفرد وكمال المجتمع وازدهاره في ميادين كافة، وقد أكد هؤلاء العلماء على أهمية ودور القائد في المجتمع.

لذا ينبغي أن يتسم القائد بصفات إيجابية ونادرة تؤهله على القيادة واحتلال الموقع المؤثر في الدولة والمجتمع، وتمكنه من أداء المهام والمسؤوليات المهمة التي تساعد على تقويم وازدهار المجتمع، وقد حدد الفارابي أهم الوظائف التي يمكن أن يتحملها القائد وهي وظيفة الرئاسة والسيطرة على شؤون الدولة وإدارتها بالشكل الصحيح الذي يحقق العدالة والمساواة لجميع الأفراد.

و- تصنيف المجتمعات الإنسانية:

لقد صنف ابن خلدون المجتمعات تبعاً لدرجة نضوجها التاريخي وتقدمها الحضاري، وأشار إلى المعيار الأساسي الذي اعتمد عليه في عملية التصنيف.

حيث يعتقد بأن هناك نوعين من المجتمعات هما: المجتمع الريفى (البدوي)، والمجتمع الحضري، وأوضح بأن المجتمعات تتحول من مجتمع لآخر وحدد صفات المجتمع البدوي بهبوط الكثافة السكانية وعدم التخصص وهبوط المستوى المعاشي والصحي، أما المجتمع الحضري فيتميز بارتفاع الكثافة السكانية وتنوع عناصر السكان وسيادة نظام تقسيم، وارتفاع المستوى المعاشي والصحي وسيطرة الدولة على أنشطة المجتمع وضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، وقام الفارابي بتصنيف المجتمعات إلى مجتمعات فاضلة تحقق السعادة والكمال للأفراد والجماعات، ومجتمعات غير فاضلة ومنها الجاهلة والضالة والفاسقة والإباحية، واعتمد على معيار التمسك بالأخلاق الفاضلة التي تنبعث من أخلاقية وتعاليم الإسلام^(١).

ز- طبقات المجتمع:

اهتم المفكرون الاجتماعيون الأوائل بدراسة البناء الطبقي في المجتمع، إذ قسموا المجتمع إلى طبقات مختلفة وأشاروا إلى ظاهرة الحراك الاجتماعي من حيث وجودها أو عدم وجودها وأثرها في عملية التحول الاجتماعي، فقد قسم إخوان الصفا المجتمع إلى ثلاث طبقات هي طبقة الحكام والنبلاء وطبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، واختلاف طبقات

(١) نفس المصدر السابق، ص ٧١.

الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتعاون الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية.

أما ابن بطوطة فيقسم المجتمع إلى ثلاثة أنواع، هي: طبقة النبلاء، ورجال الدين، والطبقة الوسطى، وطبقة العوام، والانتماءات الطبقيّة هذه تعتمد على عدة متغيرات أهمها: الحصب والنسب والاتحاد العائلي والقابلية والذكاء والظروف الاقتصادية والسياسية التي يمر بها المجتمع، ويوضح ابن بطوطة بأن للنظام الطبقي في الريف هو نظام مغلق لا يعطي المجال للفرد بالحركة من طبقة إلى أخرى، أما في الحضر فهو شبه مفتوح بحيث يسمح للفرد بالانتقال من طبقة إلى أخرى.

ح- منهجية العلوم الاجتماعية:

يعد ابن خلدون من أول العلماء والمفكرون الذين نادوا بضرورة التزام العالم أو الباحث بمنهجية البحث العلمي التي تتطلب ضرورة للفصل للواضح بين الحقائق والتقسيم، وهذا الفصل يمكن الباحث الاجتماعي من التخصص بوصف الظواهر وتحليلها وتشخيص العوامل للموضعية والذاتية والربط بينهما من أجل تعليل وشرح عملية اجتماعية مهمة كالزواج والأسرة والحرب والحضارة والعبودية والإقطاع والملكية والإرث والدولة والقانون..... إلخ

ط- دور القيم في التربية والسلوك:

يؤكد المفكرون الاجتماعيون العرب على أهمية إقيم الأخلاقية والسلوكية في بناء وتقديم المجتمعات، كما يعبرون القيم الاجتماعية الإيجابية من العوامل الأساسية التي تدخل في عملية التربية والتكوين، فهذه القيم يجب أن يتمسك بها القائد والمفكر والمعلم والمرشد الديني، لكي يستطيع أن يصبح ذا شخصية قوية ومؤثرة تمكنه من تطبيق القيم الاجتماعية النبيلة على الجيل الناشئ، ويستطيع خلق جيل قوي ومؤمن يعتمد المجتمع عليه في نهوضه وتقدمه.

إن أغلب القيم الإيجابية التي تؤكد عليها المفكرون الاجتماعيون هي قيم مستنقة من التراث العربي الأصيل، ومن مبادئ الدين الإسلامي كقيم البطولة والشجاعة والإيثار والتواضع والتسامح وعدم التكبر والغرور والنزاهة والكرامة والصدق والإخلاص في العمل وتحمل المسؤولية واحترام الكبير والعطف على الصغير.... إلخ^(١).

قد أوضح المفكرون كيفية التمسك بها وأثرها على العلاقات الإنسانية والسلوك القبيح هو تجسيد للقيم السلبية، لذلك يمكننا معرفة مبادئ وقيم وأخلاقية الفرد من خلال النظر إلى سلوكه وسيرته.

٢- الدراسة الثانية:

دراسة "الحياة الاجتماعية والدينية في عصر ما قبل الإسلام"

للدكتور رشيد عبد الله الجميلي

(١) نص للمصدر السابق، ص ٧٢.

ابن الخطاب رضى الله عنه شدد فى تحريم هذا النوع من الزواج مستنداً على شهادة شهود فى تحريم الرسول ﷺ له .

ثالثاً: زواج الشغار:

ويتم هذا النوع من الزواج دون مهر، فكان الرجل يزوج ابنته أو أخته على أن يزوجه الآخر بابنته أو أخته، فكان يُقال: «شاغرنى أى زوجنى أختك أو ابنتك حتى أزوجك أختى أو ابنتى ولا يكون بينهما مهر». وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من الزواج، وجاء فى الحديث الشريف أن الرسول ﷺ قال: «لا شغار فى الإسلام»^(١).

رابعاً: زواج المقت:

وهو نوع من الزواج تعامل المرأة معاملة التركة، فيتزوج الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه، وقد أبطل الإسلام هذا النوع من الزواج، وقال تعالى فى محكم كتابه: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا مَا بَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢).

خامساً: زواج الأسر:

كان أسر النساء من العادات المألوفة فى الجاهلية، وقد أطلق على المرأة الأسيرة اسم التزينة، أى التى انتزعت من أهلها كرهاً. وتعتبر ملكاً خاصاً لسيدتها إن شاء تزوجها أو زوجها لغيره، أو باعها بيع العبيد، والزواج بهذه الحالة يتم بدون مهر أيضاً. بالإضافة لما تقدم فقد عرف العرب أنواعاً أخرى من الزواج لكنها لم تكن شائعة عند الجميع، بل اقتصرت فى أحياء معينة من بلاد العرب، كزواج الاستبضاع والمخانة والبدل والرهط^(٣).

ب - الطلاق:

لقد كان الطلاق مباحاً عند العرب وهو من المصطلحات العربية القديمة، ويعنى عندهم تنازل الرجل عن كل حقوقه التى كانت له على زوجته ومفارقتها لها، حيث إن

(١) الجميلى، رشيد عبد الله (الدكتور)، مصدر سابق، ص ١٥٧ .

(٢) سورة النساء، آية «٢٢» .

(٣) الجميلى، رشيد عبد الله (الدكتور)، مصدر سابق، ص ١٥٨ .

الطلاق بيد الرجل والنساء لهن العدة، إلا وجد من النساء من اشترطن أن يكون أمرهن بأيديهن إن شئن أقمن وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق.

وكان العرب قبل الإسلام يطلقون ثلاثاً على التفرقة. وأول من سن ذلك لهم النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم فعلت العرب ذلك. فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها، أى أنه بعد الطلاق الثلاث لا يمكن الرجوع إلى الزوجة، فنصبح طالقة طلاقاً بائناً وتكون عندئذ بائنة عليه.

وقد أقر الإسلام ذلك، وحرّم جواز الرجوع إلى الزوجة بعد التطليقات الثلاث حتى تنكح زوجاً غيره، فقال تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ (١).

وعرف العرب قبل الجاهلية أيضاً أنواع أخرى من الطلاق منها طلاق الظهار، وهو تشبيه الرجل زوجته أو ما يعبر به عنه أو جزء شائع بمحرم كما يقول: أنت على كظهر أمى أو كبطنها أو كفخذها، أو كظهر أختى أو عمى، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ (٢).

أما طلاق الإيلاء فيعنى تحديد فراق الرجل لزوجته بأجل لا يقرب خلاله منها، وكان إيلاء العرب قبل الإسلام السنة والستين، فجعل فى الإسلام أربعة أشهر فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء.

وهناك نوع آخر من الطلاق عرف بطلاق الخلع، وهو مفارقة الرجل لزوجته على مال تدفعه إليه مقابل تخليته سبيلها وافتدائها نفسها به، ويشمل ذلك ما تدفعه زوجة الأب المتوفى إلى ابنة الذى يتزوجها بعد وفاة أبيه من مال مقابل فراقه لها وتطبيقه إياها. وفى بعض الحالات تبقى الزوجة فى عصمة زوجها ولكنه لا يراجعها ولا يطلقها،

(١) سورة البقرة، آية «٢٢٩».

(٢) سورة المجادلة، آية «٣»، «٤».

ويظل مفارقاً لها، بقصد إرغامها على دفع مقدار من المال لسمح لها بالطلاق والزواج من غيره، وعرف هذا النوع من الطلاق بطلاق العضل وقد نهى الإسلام عن ذلك وحرمه.

وكان من العرب من يطلق زوجته ويفارقها، إلا أنه لم يكن يسمح لها بالزواج من غيره فيهددها، ويهدد أهلها إذا حاولت الزواج أو يعمد إلى إرضاء أهلها بالمال لمنعها من الزواج. وقد حرم الإسلام ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ (١).

ج - مكانة المرأة في المجتمع العربي:

كان للمرأة العربية مكانة كبيرة في المجتمع العربي فظهرت أشد ما تكون من قوة وأكثر ما تكون حرية، وكان هناك نوعان من النساء: الإماء والحرات، فالإماء كثيرات منهم القيان والجوارى، وقد يرعين الإبل والغنم وكن في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن، إلا إذا أظهروا بطولية تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عترة بن شداد، فإن أباه لم يلحقه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره.

أما الحرة فكانت تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء، إلا إذا كانت من الشريقات المخدومات، فإنه كان يقوم لها بهذه الأعمال بعض الجوارى.

وشاركت المرأة الرجل في كل أموره فكن يرافقن أزواجهن إلى الحرب، يشدون من عزائم الرجال بما ينشدن من أناشيد حماسية. وكان من حق المرأة الاحتفاظ بأملاتها الخاصة حتى بعد زواجها إذ إن عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع الزوجة وحق إنجاب الأولاد له لا حق تملكها، وغالباً ما كان يؤخذ رأيها في الزواج، فكن يخترن أزواجهن ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن، وكانت المرأة تظل حتى بعد زواجها مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها. وكان الرجل يستشير زوجته في كل أموره ويقف عند رأيها فلم يكن يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويأخذ موافقتها. وكان بعض العرب يفتخرون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يفتخرون بنسبهم إلى آبائهم، ووجد من الملوك من

(١) سورة البقرة، آية «٢٣٢».

نسب إلى أمه، كالمُنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٥١٢ - ٥٧٤م) وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف^(١).

وبالرغم مما عرف عن العرب عن جهم للبنين وإيثارهم على البنات، فقد وجد من كان يعطف على بناته ويرى أنهن أكثر وفاء للأباء من الصبيان. وظهر قبل الإسلام عدد من النساء لعبن دوراً بارزاً في المجتمع العربي في الميادين السياسية والاقتصادية، كزنوبيا ملكة تدمر، وبلقيس ملكة سبأ، والسيدة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ﷺ، فقد كانت تستأجر الرجال في أموالها. وفي الحياة العامة كانت المرأة تعين الرجل وتمده بصائب آرائها وتنظم سلوكه ولها شأن كبير في حياة الأسرة والقبيلة. ومن أهم الدلائل على سمو منزلتها في البيئة الجاهلية الحروب الكثيرة التي حدثت بسببها، ومن بين النساء في الجاهلية من عرفت بأصالة الرأي وحسن النظر، فروى عن عمرة ابنة عامر بن الظرب أنها كانت تساعد أباهما عندما تقدم به السن.

د - الواد:

كان الواد من العادات المستهجنة عند العرب قبل الإسلام، والواد يعني دفن البنات وهن أحياء خوفاً من العار إذا ما سبين في الحرب، فكانوا يحفرون حفرة فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة^(٢).

وقد اختلف الباحثون في تحديد أسباب نشوء هذه العادة عند العرب، فأرجعها بعضهم إلى العامل الاجتماعي وهو شعور العرب بالغيرة والخوف من العار الذي تجلبه لهُ البنت إذا تعرضت للسبي، في حين ذكر البعض الآخر أن سب الواد يعود إلى صفات في المولودة كان يتشائم منها أهلها، كأن تكون زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء.

أما في القرآن الكريم فقد ورد ما يفيد أن الدافع للواد هو الخوف من الفقر والإملاق^(٣). ولم يكن الواد قبل الإسلام مقتصرًا على البنات، بل وجد من العرب من كان يقدم على قتل الأولاد الذكور. ويرى الباحثون أن هذه العادة من بقايا الشعائر الدينية القديمة، فتقديم الضحايا البشرية إلى الآلهة لخير المجتمع وسلامته وإرضاء الآلهة

(١) الجميلي، رشيد عبد الله (الدكتور)، مصدر سابق، ص ١٦٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣) سورة الإسراء، آية «٣٢»، وسورة الأنعام، آية «١٥٢».

من الشعائر الدينية المعروفة عند قدماء المصريين واليونان والرومان. إلا أن قتل الأولاد الذكور قبل الإسلام كان أقل انتشاراً من وأد البنات باعتبار أن الولد عنصر مهم في السلم والحرب وأقدر على الكسب من الأنثى، ثم إن وقوعه في الأسر لا يجلب العار إلى أهله أو عشيرته. ويرجع بعض الباحثين وأد الذكور إلى عوامل تتعلق بصحة المولود كأن يكون ضعيفاً أو مشوهاً فيقضى عليه الوالدان.

هـ الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام:

إن الديانة التوحيدية (الأحناف) كانت هي السائدة قبل اليهودية وهي ديانة إبراهيم الخليل عليه السلام.

أما الديانة الوثنية فهي التي نشأت من فكرة عبادة العرب لمظاهر الطبيعة التي تقع تحت أبصارهم كالأرض والسماء والنجوم والكواكب، والوثنية هي الطور الذي تمر به كل أمة في بدايتها قبل أن تنتقل إلى التوحيد. وقد قاوم العرب قبل الإسلام فكرة التوحيد ولم يتأثروا باليهودية أو المسيحية.

ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أن الوثنية كانت تتفق مع نظام العرب القبلي القائم على الاستقلال. فكانت لكل قبيلة مقوماتها ومعتقداتها، فالفرد يفنى في القبيلة والقبيلة مثله الأعلى. وقد اعتقد العرب بوجود قوى روحية كامنة مؤثرة في العالم والإنسان في بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد، وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب، فربط بين هذه الكائنات والموجودات والظواهر الطبيعية وبين القوى الخفية وقدمها. ثم تطورت وثنية العربى إلى عبادة قطع الصخور ومعظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم والجمال ولبنهما. ويعتقد بعض الباحثين إلى أن الأصنام التي عبدها الإنسان لم تكن هي الآلهة، بل كانت سكناً لهم ولأرواحهم، فهي تمثل استقرار القوى الروحية في الأشياء المادية، وليس من الضروري أن تكون بصورة آلهة، ولكنها عندما ينحط التفكير تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة^(١).

وانتشرت عبادة الأصنام انتشاراً واسعاً في بلاد العرب، فكان لكل قبيلة صنماً خاصاً بها. ويرى بعض العلماء أن عبادة الأصنام لم تكن عادة خاصة بالعرب، بل عرفت عند غيرهم من الشعوب السامية وغير السامية.

(١) الجميلي، رشيد عبد الله (الدكتور)، مصدر سابق، ص ١٦٨.

أما الأصنام التي انتشرت انتشاراً واسعاً بين كثير من القبائل العربية فهي اللات والعزى ومناة.

وكان الحج من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين، ويعنى التوجه إلى الأماكن المقدسة في أوقات معينة من السنة للتبرك بها وللتقرب إليها. ولم يكن الحج مقتصرًا على بيت واحد يحج إليه العرب جميعًا، فالنصوص الكلاسيكية من يونانية ولاتينية وسريانية أشارت إلى وجود الحج عند العرب، وإلى ذهاب القبائل العربية القاطنة في الأرض العربية إلى بيوت كانت تقدها. ووفقاً للروايات السابقة يظهر أن هناك عدد من الآلهة كان العرب يشد الرحال إليها للحج، وكانت مواسم الحج أعيادًا يجتمع الناس فيها بأهلي ما عندهم من حلال معتقدين أنهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفسهم آلهتهم.

ويرافق هذه الاحتفالات ذبح الحيوانات. كلُّ على قدر طاقته ومكانته، فيأكل منها الفقراء.

لم تكن ديانة العرب قاصرة على الوثنية، بل إن الجزيرة العربية تعرضت إلى كثير من المؤثرات الخارجية، فقد دخلت الأديانات السماوية كاليهودية والمسيحية في أنحاء متعددة من بلاد العرب^(١).

٣ - الدراسة الثالثة:

دراسة «الفارابي» للدكتور مصطفى الخشاب

تقع هذه الدراسة في الفصل الرابع الموسوم «التفكير الاجتماعي عند فلاسفة المسلمين» وهو أحد فصول كتاب «تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره» الجزء الأول^(٢).

يتضمن هذا الفصل التحدث عن أحد فلاسفة الإسلام الذين تكلموا في الفلسفة الاجتماعية وعالجوا بعض شؤون الاجتماع وهو الفارابي.

تحدث الباحث عن حياة الفارابي وأهم مؤلفاته الاجتماعية والمكانة العلمية التي تمتع بها في العالم الإسلامي.

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٢) الخشاب؛ مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، ط ٢، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٦، ص ٥٩.

عالم الفارابي شؤون السياسة والاجتماع وأخذت هذه الحالة قسطاً كبيراً من نشاطاته وتناولت أكثر مؤلفاته هذه الناحية ومنها «كتاب السياسات المدنية» و«آراء أهل المدينة الفاضلة»، وأن الغاية الأساسية للفارابي من كتابه الأخير هي تكوين مجتمع فاضل أو جمهورية مثالية على غرار جمهورية أفلاطون.

وقد قسم الفارابي كتابه على قسمين رئيسيين عرض في القسم الأول الدعائم الفلسفية التي يريد أن يقيم عليها مدينته المثالية، حيث تكلم عن الذات الإلهية وصفاتها وكيفية صدور الموجودات عنها وأجزاء النفس الإنسانية ووظائفها ومسائل تتعلق بالإرادة والاختيار، وقد تأثر بنظريات أفلاطون وأرسطو ومبادئ الدين الإسلامي.

أما القسم الثاني من كتاب أهل المدينة الفاضلة، فقد أوضح القواعد الأساسية التي ينبغي أن تقوم عليها مدينته الفاضلة^(١).

لقد تناول الفارابي تحليل الضرورة الاجتماعية وتقسيم المجتمعات ودعائم المدينة الفاضلة وصفات رئيسها.

بدأ الفارابي بحوثه بتحليل حقيقة الاجتماع الإنساني، والدوافع الضرورية التي أدت إلى تكوينه، مؤكداً على أن الإنسان مدنى بالطبع، وهو بفطرته محتاج من الناحيتين المادية والمعنوية إلى أشياء كثيرة لا يستطيع القيام بها أو الحصول عليها بصورة منفردة، فلا بد له من التعاون مع أقرانه حتى تتحقق الغاية المطلوبة من الاجتماع الإنساني، وبذلك يتحقق الكمال الإنساني الذي يعنى به السعادة، وأن الفرد لا يستطيع تحقيق السعادة لنفسه بالماديات، بل لا بد من التعاون الروحي والفكري، لأن السعادة تتصل بأفضل القوى الإنسانية وأكملها وهي القوى العقلية.

لقد قسم الفارابي المجتمعات على نوعين أساسيين وهما:

أ - مجتمعات كاملة، وهي التي يتحقق فيها التعاون الاجتماعي بأكمل صورته وأرقى مظاهره.

ب - المجتمعات الناقصة، وهي التي لا تستطيع أن تحقق الاكتفاء الذاتي بنفسها، ولا تحقق لأفرادها السعادة المنشودة^(٢). فالمجتمعات الكاملة في نظره ثلاث مراتب:

(١) نفس المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦١.

عظمى، ووسطى، وصغرى. فالعظمى اجتماع الجماعة كلها فى المعمورة، والوسطى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة، أما الصغرى فهى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة.

أكد الفارابى على أن أكمل المجتمعات هو اجتماع العالم كله فى دولة واحدة، وتحت سيطرة حكومة واحدة مستقلة، وأقل منه كمالاً اجتماع أمة فى جزء من المعمورة تستقل فى شؤونها الداخلية والخارجية وتستطيع أن تحقق لأفرادها ما ينشدونه من تعاون مادى وروحى، وأقلها جميعاً فى الكمال اجتماع أهل مدينة فى جزء من الأمة تحت سلطة رئيس، كما هو الحال فى المدن اليونانية التى تمثل وحدات سياسية واجتماعية مستقلة.

والمجتمعات الناقصة ثلاث مراتب أيضاً، وهى اجتماع أهل القرية واجتماع أهل المحلة، ثم اجتماع فى منزل، حيث إن أكثر المجتمعات الناقصة رقياً وأقربها إلى الكمال وأقلها نقصاً اجتماع أهل القرية وأهل المحلة وأكثر نقصاً فى ذلك اجتماع الشوارع والطرق.

اقتصر الفارابى فى دراساته على المجتمعات الكاملة غير أنه أهمل النوعين الأولين من هذه المجتمعات، ودرس اجتماع المدينة؛ لأنها أبسط أشكال المجتمع الكاملة وأولى خلاياه، والمدينة الفاضلة فى نظره هى التى يتعاون أفرادها على الأمور التى تنال بها السعادة^(١).

وأوضح الفارابى بأن الجمهورية الإنسانية لا بد أن تكون خاصة بحكومة يرأسها الخليفة، ولا بد أن تدين بالدين الإسلامى، أى أنه من الضرورى قيام الوحدة الدينية فى المجتمع المثالى؛ لأن هذه الوحدة من شأنها أن تعزز الوحدة الروحية والسياسية.

وأهم وظائف المدينة الفاضلة وأكبرها خطراً فى نظر الفارابى هى وظيفة الرئاسة، وذلك لأن الرئيس هو منبع السلطة العليا، وهو المثل الأعلى الذى تتحقق فى شخصه جميع معانى الكمال، وهو مصدر حياة مدينته ودعامة نظامها. ويشترط الفارابى فىمن يصلح لتولى رئاسة المدينة الفاضلة اثنى عشر فضيلة بصفة طبيعية وست فضائل عن طريق الاكتساب^(٢).

(١) نفس المصدر السابق، ص ٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٥.

ومع هذه الدقة البالغة التي يتوخاها الفارابي في اختيار رئيس المدينة ومع اعترافه صراحة بأنه من العسير أن تتوفر الصفات الطبيعية والمكتسبة في شخص واحد فإنه أضاف شرط آخر وهو الشرط الروحي وهو اتحاد الرئيس بالعقل الفعال، وهو العقل المشرف على الإنسانية الذي ينبعث عن الله تعالى مباشرة، كما ينبعث الضوء عن الشمس^(١).

و غاية الفارابي واضحة، وهي أنه يريد رئيس المدينة الفاضلة فيلسوفًا كامل التعقل بما يفيضه الله تعالى على عقله المنفعل من حقائق تنظم جميع المعقولات، كما يصبح نسبيًا مطلقًا على ما سيكون وعالمًا بما هو كائن بما يفيضه الله على قوته المتخلية من إشراق، والحق فإن الفارابي ينفرد عن أفلاطون بهذا الشرط الروحي.

وقد وجهت عدة انتقادات لآراء الفارابي؛ لأنه درس شؤون الاجتماع مختلطة بين الدين والأخلاق، وتأثر بنظريات صوفية مما أفقد نظريته الصفة العلمية. وكانت دراساته متجهة إلى البحث فيما ينبغي أن تكون عليه شؤون الاجتماع، ولم يبحث في طبيعة النظم وبما هو كائن^(٢).

٤ - الدراسة الرابعة:

دراسة «أبو حامد الغزالي، للدكتور محمد عاطف غيث

تحتل هذه الدراسة مبحثًا مهمًا من مباحث كتاب «تاريخ التفكير الاجتماعي» للدكتور محمد عاطف غيث^(٣).

أوضح الباحث بأن الغزالي ظاهرة قيادية تظهر عندما تهدد القيم الاجتماعية بالانهيار ويصبح التساهل في الدين هو الأمر المألوف وتزيد حدة الخلافات في الآراء وتكثر الأقوال المتناقضة والمتعارضة ويزداد الشك وتعدد الأحزاب والفرق الدينية ويضع الشعور بالاطمئنان العقلي والاستقرار العاطفي. ويسبب الآراء المتناقضة في تلك الفترة فإننا نجد عانى منها أشد المعاناة، وحاول أن يناقش سائر الفرق ويقيس آراءهم بمقياس

(١) نفس المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣) غيث، محمد عاطف (الدكتور)، تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،

١٩٨٧، ص ٣٩.

صحيح للتمييز بين الحق والباطل، وكان هذا المقياس هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة.

وقد وجد الحكام في الغزالي الرجل القادر على رد الاعتبار للقيم الروحية والاجتماعية والإسلامية، حيث إنه درس الفلسفة والمنطق، وحاول أن يعد ما فيها من مخالفة الدين، لذا ظهر كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي أراد به أن يعيد إلى المجتمع ثقته بقيمه الدينية. عرض العقيدة الإسلامية عرضاً واضحاً خالياً من الأوهام والبدع التي أدخلها الإسرائيليون والفرس في الدين من خلال كتابه «إحياء علوم الدين» وقرر أن العقيدة الإسلامية الأصلية هي السبيل إلى إزالة الفرقة والخلاف وتبديد الشكوك وإعادة الاستقرار العاطفي والروحي للمجتمع الإسلامي^(١).

إن الغزالي ترك أثراً رائعاً في الفكر الاجتماعي بسبب اهتمامه بالتربية الاجتماعية، والحاجة إلى وجوب أن تكون التنشئة الأولى على أساس من التربية الدينية التي تعمل على غرس مبادئ العقيدة في نفس الصبي منذ الصغر، حيث ثبت في عقله وتصبح موجهة لسلوكه. وقد تضمن هذه الدراسة عدة محاور وهي:

أ - التنشئة الخلقية:

يرى الغزالي أن الأخلاق قابلة للتغير، لذا فإن تربية الطفل تبدأ من المهد، فيراقبه أبوه أول أمره، فإذا ظهر على الطفل الحياء كان ذلك بشارة تدل على اعتدال الأخلاق.

وأوضح الغزالي بأن الطفل يجب أن يؤدب ويتعلم آداب الأكل ويلبس الثياب المناسبة. كما يجب أن ينال قسطاً من التعليم الديني والديني، ويجب أن يُعوّد الطفل على الخشونة في الفرش والملبس والمطعم، وأن يمنع كل ما يفعله في الخفية، وأن يُعوّد الطفل على النشاط وعدم الكسل وعدم الافتخار بأبيه، وأن يكون كريماً محباً للكلام الحسن، مبتعداً عن الفواحش، وأن يكون مطيعاً لوالديه ومعلمه، وأن يؤدي العبادات المفروضة عليه.

ب - التفكير الاجتماعي:

كان للغزالي آراء اجتماعية عظيمة، حيث بحث في نشأة المجتمعات ونظمها،

(١) نفس المصدر السابق، ص ٤١.

فلمس كثيراً من الموضوعات الاجتماعية التي أكدها ابن خلدون فيما عبد، لكن الغزالي تناولها من وجهة نظر دينية، ولولا ذلك لكان سابقاً على ابن خلدون في إنشاء علم الاجتماع^(١).

ويتكلم الغزالي عن العلاقة بين الإنسان بأخيه الإنسان، يوضح بأن الإنسان يطلب أخيه الإنسان ليستخدمه أو ليتمتع به (كالأزواج) أو يطلب قلوب الناس ليملكها بأن يفرس فيهم التنظيم والإكرام.

ويبين الغزالي الحاجة إلى النظام القانوني، حيث يقول: «باجتماع الناس في المنازل والبلاد وتعاملهم، تولدت بينهم خصومات فلا بد من حدوث رياسة، وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد، وأهل البلد يتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا، وهكذا يفعل الرعاة وأزباب الفلاحة.

ولما كانت أحوال الناس في حياتهم اليومية كثيرة ومتشابكة ومعقدة فقد أدرك الغزالي بأن النظام الاقتصادي وغيره من النظم لا بد له من قانون وسياسة يعملان على تثبيت السلوك الصحيح، حتى يعيش الناس حياة مستقرة آمنة^(٢).

ج - الطبقات:

يوضح الغزالي بأن الناس في الصناعات ثلاث طوائف وهم: الفلاحون والرعاة والمحترفون، والثانية طائفة الجندية (الحماة بالسيف)، والثالثة المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والحياة وأمثالهم.

كما يوضح تشابك العلاقات الاجتماعية فيقول «انظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن، وهكذا أمر الدنيا لا يفتح منها باب إلا يفتح بسببه أبواب أخرى.

د - الاتجاهات السلوكية:

يتحدث الغزالي عن الاتجاهات السلوكية عند الجماعات المختلفة في المجتمع

(١) نفس المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٣.

الكبير فيقول: «هناك طائفة غلبهم الجهل والعقلة، ويقولون إن المقصود هو العيش في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت».

وطائفة أخرى زعموا أنهم فطنوا الأمر وأوضحوا بأن الإنسان ليس أن يشفى بالعمل وإنما بالسعادة في أن يقضى وطره من شهوة، وهى شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرخوا همهم إلى اتباع النساء وجمع لذات الأطعمة^(١).

وطائفة ثالثة ظنوا أن السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز فسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع.

وطائفة رابعة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاشى ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس ويزخرقون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يُقال أنه غنى ويظنون أن ذلك هو السعادة.

وطائفة خامسة ظنوا أن السعادة فى الحياة والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرخوا همهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم، وإذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعيتهم فقد سعدوا سعادة عظيمة^(٢).

ولللغزالي أقوال أخرى فى حديثه عن بعض أنواع السلوك الاجتماعى الذى ينشأ لدى الفرد نتيجة لتفاعله فى المجتمع، فإنه قد شرح أكثر أنواع السلوك الشاذ وبين أسباب نشأته وطرق التخلص منه.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٥.

« دراسة أهمية ابن خلدون في دراسات علم الاجتماع والفكر الاجتماعي »

للأستاذين هوارد بيكر وهاري بارنز

تحتل هذه الدراسة مبحثاً مهماً من مباحث فصل «تلاقى الشرق بالغرب وتقدم الدنيوية»، وهذا الفصل يقع في كتاب «الفكر الاجتماعي من الخرافة إلى العلم» للمؤلفين المذكورين أعلاه^(١).

يبدأ المبحث بتحديد الأهمية العلمية لابن خلدون التي تنعكس في الإضافات التي قدمها ابن خلدون للدراسة التاريخ كعملية اجتماعية وطبيعية، ذلك أن ابن خلدون قد تفوق على كل المفكرين العرب والمسلمين أمثال ابن بطوطة والإدرسي وابن رشد والبيروني في دراسته للور العوامل التاريخية في فهم المجتمع. كما أنه تفوق على العديد من مفكري الغرب أمثال فيكو وتيركو في التأكيد على موضوع استمرارية التقدم التاريخي والعوامل الموضوعية المؤثرة في مسيرة المجتمع^(٢).

إن ابن خلدون يعتبر حركة التاريخ التي تحدد حركة المجتمع هي حصيلة الصراع المزمع بين سكان البدو وسكان الحضر، فسكان الحضر يتعرضون إلى غزوات البدو الذين يعيشون في الصحراء، وهذه الغزوات غالباً ما تؤدي إلى سقوط الملك في الحضر، وسيطرة الغزاة من سكان البادية على الملك، وتبديل نظام الحكم والاستئثار بالسلطة والتكيف لطبيعة الحياة الحضرية في المدينة، وبالتالي ضعف العصبية القبلية التي كانت تربط الغزاة القادمين من البادية. وهذا الضعف إنما يؤدي إلى ضعف السلطة الحاكمة، وبالتالي عدم قدرتها على الصمود أمام الغزوات القبلية والعشائرية القادمة من البادية. وهذا يسبب سقوط الملك مرة ثانية.

وهكذا يحدد ابن خلدون دورة التاريخ في تعاقب السلالات الحاكمة نتيجة للصدام المسلح بين سكان البادية وسكان الحضر^(٣).

(1) Backer, H., and Harry Barnes. Social Thought From Lore to Science, Vol. 1., Dover Publications, New York, 1961, o. 266.

(2) Ibid., p. 266.

(3) Ibid., p. 267.

من هذا الطرح يستخلص ابن خلدون لنا أفكاراً ومبادئ تعتقد بأن التاريخ ما هو إلا مجموعة عمليات من التغيير الاجتماعي، وأن هناك قوى وعوامل نفسية ومحيطية تؤثر في عملية التغيير، وما يحدثه ذلك التغيير من تبدلات تقع في نظام الحكم وفي النظم الاجتماعية التي تقع تحت إدارة السلطة. إن تأثير ابن خلدون على علماء الاجتماع في الغرب بدأ في عام ١٨٩٩م عندما نشر عالم الاجتماع الفرنسي كمبلوز دراسته الموسومة «مقالات في علم الاجتماع» إذ إنه خصص فصلاً مستقلاً لابن خلدون في هذا الكتاب، وفي هذا الفصل وضح العالم كمبلوز النظرية الصراعية عند ابن خلدون ودورها في عملية التنمية الاجتماعية. وقد ثمن كمبلوز النظرية الصراعية عند ابن خلدون واعتبرها عملاً متميزاً من المجتمع الإسلامي يوضح الطريقة التي من خلالها يتطور المجتمع ويتقدم.

كما أنه حدد في الفصل المراحل التاريخية الحضارية التي مرَّ بها المجتمع حسب نظرية ابن خلدون. فابن خلدون يؤمن بأن المجتمع يتنقل تاريخياً من مرحلة البداوة إلى مرحلة التريف، ومن مرحلة التريف إلى المرحلة الحضارية أو مرحلة التحضر^(١).

ويستعمل ابن خلدون نظريته الصراعية كما يخبرنا كمبلوز في توضيح عملية مسيرة المجتمع، إذ إن الصراع بين البداوة والحضارة هو الذي يحول المجتمع البشري من حال إلى حال، أى تحول المجتمع من طور البداوة إلى طور الحضارة أو التحضر، وقبل أن يتنقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة فإنه يمر بمرحلة انتقالية تلك هي مرحلة التريف التي تشير إلى مرحلة استقرار السكان في منطقة جغرافية محددة نتيجة للأعمال الزراعية التي يمارسها السكان في المنطقة^(٢).

ويعتقد بيكر وبارنز بأن نظرية ابن خلدون الاجتماعية والإضافات التي قدمها إلى الفكر الاجتماعي لا تنحصر بالنظرية الصراعية التي طرحها في سياق نظريته الاجتماعية والتي وردت في كتاب المقدمة لابن خلدون وإنما تنطوي أيضاً على معلومات تتعلق بنظم العمران البشري أيضاً والتكامل العقلائي بين هذه النظم، إذ إن ابن خلدون يرى بأن المجتمع يتكون من مجموعة نظم مكملة الواحدة للأخرى، وهذه النظم سماها بنظم

(1) Ibid., p. 268.

(2) Ibid., p. 268.

العمران، وقد صنّفها ابن خلدون إلى عدة أنواع أهمها العمران الأسرى السياسى والعمران الدينى والعمران التربوى والعمران العسكرى... إلخ. ويعنى ابن خلدون بالعمران ما تمكن الإنسان من تكوينه لضبط حياته الاجتماعية المتفرعة والمتشعبة. فالعمران الدينى أو لاقتصادى هو عبارة عن نظم وضوابط وقوانين اجتماعية وجدها الإنسان لتنظيم حياته الدينية أو الاقتصادية⁽¹⁾.

وهذا التنظيم إنما يعتمد على الاجتماع البشرى، أى التفاعل بين الناس والتضامن والتماسك من أجل تحقيق غايات يصبوا إليها الأفراد وتعد النواة الأساسية لبناء المجتمع.

والإضافة الأخرى التى قدمها لنا ابن خلدون فى الفكر الاجتماعى هى حقيقة الفصل بين الحقائق والقيم، فالحقائق تدرس الأشياء كما هى وتهتم بما هو كائن بينما القيم تجسد العواطف والانطباعات والانفعالات الذاتية عند المفكر أو الكاتب. ودعوة ابن خلدون إلى ضرورة الفصل بين ما هو كائن (الحقائق) وبين ما ينبغى أن يكون (القيم) قد طورت الفكر الاجتماعى فى الحقبة التى عاشها ابن خلدون تطوراً كبيراً.

لقد أشار ابن خلدون فى كتابه «المقدمة» بأن معظم الكُتّاب ومنهم المؤرخون خاصة لم يسجلوا حقائق التاريخ الخاصة بالمجتمع تسجيلاً يدل على الحقيقة والواقع، بل كانوا ينقلون المعلومات عن المجتمعات نقلاً يدل على قصور التفكير والإدراك والاستنباط للحقائق. لذا وقع هؤلاء المؤرخون فى أخطاء إذ كانوا يحتاجون إلى التوثيق والإسناد. وهذا التوثيق والإسناد كان ضعيفاً عندهم مما عرضهم إلى الوقوع فى أخطاء شوهت كتاباتهم التاريخية والاجتماعية. فالأخطاء التى وقع فيها المؤرخون تنقسم حسب رأى ابن خلدون على ثلاثة أقسام:

قسم يرجع إلى الأخطاء الناجمة عن تحيز وتعصب وتحزب الكُتّاب والمفكرون، والقسم الآخر يرجع إلى ضعف المصادر والمستمسكات والوثائق التاريخية التى كان يعتمد عليها الكُتّاب والمفكرون، أما القسم الثالث من الأخطاء التى ارتكبها الكُتّاب فيرجع إلى جهل الكُتّاب والمؤرخين بطبيعة الأشياء الحضارية التى كانوا يكتبون عنها، فهؤلاء الكُتّاب كانوا يفتقرون إلى معلومات وحقائق عن المجتمع يمكن أن تساعدهم فى سرد التفاصيل

(1) Ibid., p. 269.

الصحيحة المتأنية من طبيعة الأشياء التي كانوا يكتبون عنها. ولما لم يكن هؤلاء الكتاب متضلعين بفهم الحقائق الاجتماعية وظروفها فهماً صحيحاً، فإن كتاباتهم كانت بعيدة عن الموضوعية والدقة وقاصرة في توضيح ما هو موجود وما وقع فعلاً وحقيقة. ولتجنب هذه الأخطاء التي وقع فيها الكتاب والمؤرخون عليهم معرفة أسباب وظروف الحوادث الاجتماعية، وعليهم الإلمام بالمنظار العلمي للتغير الاجتماعي، وإذا لم يلم الكتاب والباحثون بهذه المسلمات فإن كتاباتهم ستكون ذاتية وبعيدة كل البعد عن الحقائق التي يريدون الكتابة عنها. وأخيراً أضاف ابن خلدون إضافات علمية مهمة عن أصل نشوء الدولة والمجتمع، وقد ركن في دراسته هذه على الطبيعة الاجتماعية للإنسان فقال في المقدمة بأن الإنسان هو حيوان اجتماعي بالطبيعة، أي أنه يميل إلى الاختلاط والتمازج والاجتماع البشري. فميل الإنسان إلى الاجتماع البشري يدفعه إلى تكوين أنواع من التضامن والتماسك الاجتماعي. ومن هذا التماسك تظهر نظم العمران التي تكلم ابن خلدون عنها أعلاه، فاجتماع نظم العمران يكون المجتمع الذي أراد ابن خلدون دراسته دراسة اجتماعية، أما الدولة التي حاول ابن خلدون تفسير أصل وجودها فتعكس في العمران السياسي الذي خصص له ابن خلدون حيزاً كبيراً في مقدمته والعمران السياسي بنظر ابن خلدون يتعلق بطرائق الحكم وتحديد واجبات وحقوق السلطة وتحديد حقوق وواجبات الشعب والعلاقة المتظافرة بينهما⁽¹⁾.

٦ - الدراسة السادسة:

دراسة «النظرية الصراعية عند ابن خلدون» للبروفسور دون مارتن ديل

توجد هذه الدراسة في مؤلف «طبيعة وأنواع النظرية الاجتماعية»⁽²⁾. للبرفسور دون مارتن ديل، تبدأ الدراسة بمقدمة عن تاريخ حياة ابن خلدون والعوامل الموضوعية التي دعت علماء الاجتماع في الغرب يهتمون به، والإضافات الفكرية والعلمية التي قدمها ابن خلدون لعلم الاجتماع في عصر مبكر بالنسبة للنظريات الاجتماعية التي جاء بها علماء الاجتماع الأوروبيون.

(1) Ibid., p. 273.

(2) Martindale, Don. The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Houghton Mifflin Co. 1981, pp. 135 - 139.

احتل ابن خلدون العديد من المناصب السياسية والعسكرية فى إسبانيا وشمال أفريقيا، ومثل هذه المناصب قد منحتهُ الخبرات التى جعلته متضلعا فى دراسة الطبيعة البشرية للإنسان والجماعة والمجتمع.

لقد اهتم العديد من المستشرقين الغربيين أمثال أوبن هايمر وشمت وتوينبى وكمبلوز بابن خلدون لكونه رائداً من رواد علم الاجتماع فى الوطن العربى، إذ استطاع أن يدرس العديد من الموضوعات الاجتماعية المهمة دراسة علمية، وينبه الباحثين إلى أهميتها. ذلك أنه كان يعتقد بأن الظواهر الاجتماعية تسير وفق قوانين محددة مثلها فى ذلك مثل الظواهر الطبيعية. وهنا يعد ابن خلدون الأول الذى شبه الظواهر الاجتماعية بالظواهر الطبيعية وقارن بين الكائن الاجتماعى والكائن الحيوانى، وأن الفرد الواحد لا يستطيع التأثير فى الظواهر الاجتماعية ذات الصفة الشمولية والكونية، فهى ظواهر أعلى من الإنسان، وإن الإنسان لا حول ولا قوة له فى تبديلها أو عكس تيارها، فهو أى الإنسان يتأثر بهذه الظواهر ويسير وفق مسارها ويخضع لأحكامها وظروفها ومعطياتها⁽¹⁾.

يعتقد ابن خلدون بأن القوانين الاجتماعية يمكن اكتشافها من خلال جمع عدد كبير من الحقائق وملاحظة الكثير من الحالات، علماً بأن الماضى والحاضر هما اللذان يزودان الباحث بمثل هذه الحقائق والمشاهدات التى تكلم عنها ابن خلدون، كما أن القوانين الاجتماعية لا تؤثر على شعب من الشعوب أو ملة من الملل فقط، وإنما تؤثر على جميع الشعوب والملل بنفس الاتجاه، فمثلاً قوانين السلوك البدوى يمكن تطبيقها على البدو العرب والبدو البربر والبدو التركمان والبدو الكرد، إضافة إلى أن المجتمعات تتغير وتتطور نتيجة لاحتكاكها بالشعوب الأخرى، أو نتيجة تقليدها أو محاكاتها للحضارات التى كانت باحتكاك معها⁽²⁾.

علينا الإشارة هنا إلى أن نظرية ابن خلدون الاجتماعية تتمحور حول مبدأ التضامن الاجتماعى الذى يسميه ابن خلدون بالعصية، حيث إن العصية القبلية تؤدى إلى الاجتماع البشرى والتضامن والتعاون بين أبناء المجتمع، ولولا العصية القبلية لما

(1) Ibid., p. 135.

(2) Ibid., p. 135.

تجمع الناس على شكل جماعات وقبائل وعشائر تجمعها روح الانتماء إلى القبيلة أو العشيرة أو العُصبة. وهنا يدخل ابن خلدون إلى موضوع آخر ذلك هو حتمية الاجتماع البشرى، وحتمية الاجتماع البشرى تعتمد على الطبيعة الاجتماعية للإنسان، فالإنسان بالطبيعة كما يعتقد ابن خلدون هو حيوان اجتماعى وهذه الحقيقة إنما تدفعه إلى التعاون والتآزر والتضامن مع أبناء جنسه وذلك لإشباع حاجاته المختلفة والمشاركة فى إشباع حاجات الآخرين.

إن التعاون والتضامن بين الأفراد يساعدان الإنسان فى الحصول على القوت الذى يديهم حياته والحصول على السلاح الذى يدافع من خلاله عن نفسه وعن جماعته. وهنا يستطيع الإنسان البقاء، وبالتالي يحقق إرادة الله سبحانه وتعالى، فالله خلق الإنسان ليبقى ويعيش، وإن بقاءه يعتمد على تعاونه وتآزره مع أبناء جنسه فى الحصول على الطعام والدفاع عن النفس، هذه المقومات التى تعد أساساً فى بقاء الإنسان كما يعتقد ابن خلدون⁽¹⁾.

يفسر ابن خلدون أصل نشوء الدولة والمجتمع من خلال التأكيد على الروابط القرابية والدموية التى تربط الجماعات، وبالتالي تكون المجتمعات المحلية، فالروابط القرابية والدموية تؤدى إلى ظهور نظم اجتماعية أصغرها الأسرة وأكبرها الدولة، فمن مجموعة أسر تتكون القرية ومن مجموعة القرى تتكون المدينة، ومن مجموعة المدن يتكون المجتمع.

علمًا بأن الأسرة التى هى أساس المجتمع إنما تتأصل فى الروابط الدموية والقرابية القائمة على المصاهرة أو التبني أو الروابط الدموية بين الأجيال، لكن نظم الأسرة والمجتمع المحلى سواء كان قرية أو مدينة تعتمد على مبدأ التضامن والتماسك الاجتماعى الذى أطلق عليه ابن خلدون اسم العصبة وهذه العصبة تكون قوية فى المجتمع البدوى وضعيفة فى المجتمع الحضرى، وسبب قوتها فى المجتمع البدوى يرجع إلى نقاوة العنصر وقوة العلاقات وغياب العناصر الأجنبية، بينما ضعف العصبة فى المجتمع الحضرى يرجع إلى عدة عوامل منها ضعف العلاقات الإنسانية وضعف القيم العشائرية والقبلية وكثرة العناصر السكانية.

(1) Ibid., p. 134.

ومن الإضافات الأخرى لابن خلدون تركيزه على موضوع الصراع بين البداوة والحضارة، وهذا الصراع هو صراع مزمّن شاهده ابن خلدون في مجتمعات شمال أفريقيا وإسبانيا والشرق العربي عندما تنقل بين هذه المناطق. إن نظرية ابن خلدون الصراعية تتمركز حول واقع الصراع المزمّن بين سكان البدو وسكان الحضرة، فالبدو يريدون السيطرة على سكان الحضرة وإسقاط الملك واحتلال المدينة وتكوين نظام حكم جديد فيها يديره الغزاة القادمون من الصحراء، وإن المدينة تريد التوسع على حساب البادية. ذلك أن نظام الحكم في المدينة يرغب أن يخضع سكان البدو لسلطانه وسطوته، وهنا ينشب الصراع بين البدو والحضرة؛ لأن كل فئة من هذه الفئات تريد السيطرة على الأخرى، وهكذا يظهر الصراع بصورة جلية بين البدو والحضرة، غير أن البدو نتيجة تماسكهم وتضامنهم الاجتماعي يستطيعون فرض الهزيمة على سكان الحضرة، وإسقاط الطبع حياة المدينة والتكيف لظروفها. وبمرور الزمن تضعف العصية القبلية عند البدو الذين سيطروا على المدينة وسبب الضعف يرجع إلى أن الخليفة أو السلطان أو الملك يقف ضد قبيلته أو عشيرته التي أتت به إلى الحكم؛ لأنها أخذت تتآمر عليه وتريد الإطاحة به، لذا يبدأ الخليفة بالابتعاد عنها شيئاً فشيئاً ويبدأ بالاعتماد على الأجانب في حماية حكمه، غير أن دفاع الأجانب عنه عندما يتعرض إلى الغزو البدوي القادم من الصحراء يكون ضعيفاً؛ لأن معظم المقاتلين الأجانب هم مرتزقة ولا يستطيعون الصمود أما الغزو القبلي القادم من الصحراء، فيسقط الملك مرة ثانية على أيدي غزاة الصحراء.

وهكذا يشهد المجتمع حلقة مفرغة في سقوط وظهور الإمارات والخلافات وأنظمة الحكم، وهنا يعبر علماء الاجتماع الغربيون بأن نظرية ابن خلدون في التحول الاجتماعي نظرية دائرية؛ لأنها تتناول الحلقة المفرغة في ظهور وسقوط أنظمة الحكم على مرور الزمن والتاريخ. كما أنهم يعتبرون ابن خلدون من المنظرين الصراعيين؛ لأن نظريتهم الاجتماعية والسياسية تتكلم عن الصراع المزمّن بين البداوة والحضارة⁽¹⁾.

(1) Ibid., p. 267.